أمراء للبيع

قال الشَّيخ تاج الدِّين محمَّد بنُ عليٍّ ـ الملقَّب طُوير اللَّيل ـ أحد أئمَّة الفقهاء بالمدرسة الظَّاهريَّة بالقاهرة[١] :

كان شيخنا الإمام العظيم شيخ الإسلام تقيّ الدِّين بن مجد الدِّين بن دقيق العيد[٢] لا يخاطب السُّلطان إلا بقوله : (يا إنسان !) فما يخشاه ، ولا يتعبَّد له ، ولا يَنْحَلُه ألقاب الجبروت والعظمة ، ولا يُزينه بالنِّفاق ، ولا يُداجيه[٣] كما يصنع غيره من العلماء ، وكان هذا عجيباً ، غير أنَّ تمام العجب : أنَّ الشيخ لم يكن يخاطب أحداً قطّ من عامَّة النَّاس إلا بهذا اللفظ عينه (يا إنسان !) ؛ فما يعلو بالسُّلطان ، والأمراء ، ولا ينزل بالضُّعفاء ، والمساكين ، ولا يرى أحسنَ ما في هؤلاء ، وهؤلاء إلا الحقيقةُ الإنسانيَّة !

ثمَّ كان لا يعظِّم في الخطاب إلا أئمَّة الفقهاء ، فإذا خاطب منهم أحداً ؛ قال له : (يا فقيه) على أنَّه لم يكن يسمح بهذا إلا لمثل شيخ الإسلام نجم الدِّين بن الرِّفعة[٤] ثمَّ يخصُّ علاء الدِّين بن الباجي وحده بقوله : (يا إمام) إذ كان آيةً من آيات الله في صناعة الحجَّة ، لا يكان يقطعه أحدٌ في المناظرة ، والمباحثة ، فهو كالبرهان إجلاله إجلالُ الحقِّ ؛ لأنَّ فيه المعنى ، وتثبيت المعنى .

وقلتُ له يوماً : يا سيدي ! أراك تخاطب السُّلطان بخطاب العامَّة ، إن علوت ؛ قلت : (يا إنسان !) وإن نزلت ؛ قلت : (يا إنسان !) أفلا يُسخطه هذا منك ، وقد تذوَّق حلاوة ألفاظ الطَّاعة ، والخضوع ، وخصَّه النِّفاق بكلماتٍ هي ظلُّ الكلمات الَّتي يوصف بها ، ثمَّ جعله المُلْك إنساناً بذاته في وجود ذاته ، حتَّى أصبح من غيره كالجبل والحصاة ، يستويان في العنصر ، ويتباينان في القدر : وأقلُّه مهما قلَّ هو أكثرها مهما عظمت ، ووجوده شيءٌ ، ووجودها شيءٌ آخر ؟

فتبسَّم الشيخ ، وقال : يا ولدي ! أيش هذا ؟ إنَّنا نفوسٌ لا ألفاظ ، والكلمة

---

(١) توفي سنة (٧١٧ هـ) . (ع) .

(٢) كانت وفاته سنة (٧٠٢ هـ) . (ع) .

(٣) « يداجيه » : داجاه : ساتره بالعداوة ، ولم يبدها له .

(٤) توفي سنة (٧١٠ هـ) . (ع) .

من قائلها هي بمعناها في نفسه ، لا بمعناها في نفسها ، فما يحسن بحامل الشَّريعة أن ينطق بكلامٍ يردُّه الشَّرع عليه ، ولو نافق الدِّين ؛ لبطل أن يكون ديناً ، ولو نافق العالم الدِّينيّ ؛ لكان كلُّ منافقٍ أشرف منه ، فلطخة في الثَّوب الأبيض ليست كلطخة في الثَّوب الأسود ، والمنافق رجلٌ مغطًّى في حياته ، ولكن عالم الدِّين رجلٌ مكشوفٌ في حياته ، لا مغطًّى ، فهو للهداية ، لا للتَّلبيس ، وفيه معاني النُّور ، لا معاني الظُّلمة ، وذاك يتَّصل بالدِّين من ناحية العمل ، فإذا نافق ؛ فقد كذب ، والعالم يتَّصل بالدِّين من ناحية العمل ، وناحية التَّبيين ، فإذا نافق ؛ فقد كذب ، وغشَّ ، وخان .

وما معنى العلماء بالشَّرع إلا أنَّهم امتدادٌ لعمل النُّبوَّة في النَّاس دهراً بعد دهر ، ينطقون بكلمتها ، ويقومون بحجَّتها ، ويأخذون من أخلاقها ، كما تأخذ المرآة النُّور : تحويه في نفسها ، وتلقيه على غيرها ، فهي أداةٌ لإظهاره ، وإظهار جماله معاً .

أتدري يا ولدي ما الفرق بين علماء الحقِّ ، وعلماء السُّوء ، وكلُّهم آخذٌ من نورٍ واحدٍ لا يختلف ؟ أولئك في أخلاقهم كاللَّوح من البلُّور : يُظهر النُّور نفسه فيه ، ويظهر حقيقته البلوريَّة ، وهؤلاء بأخلاقهم كاللَّوح من الخشب يظهر النُّور حقيقته الخشبية لا غير !

وعالم السُّوء يفكِّر في كتب الشَّريعة وحدها ؛ فيسهل عليه أن يتأوَّلَ ويحتالَ ، ويغيِّر ويبدِّل ، ويظهر ويخفي ، ولكن العالم الحقَّ يفكِّر مع كتب الشَّريعة في صاحب الشَّريعة ، فهو معه في كلِّ حالةٍ ، يسأله ماذا تفعل ، وماذا تقول ؟

والرَّجل الدِّيني لا تتحوَّل أخلاقه ، ولا تتفاوت ، ولا يجيء كلَّ يومٍ من حوادث اليوم ، فهو بأخلاقه كلِّها ، لا يكون مرَّةً ببعضها ، ومرَّةً ببعضها ، ولن تراه مع ذوي السُّلطان وأهل الحكم والنِّعمة كعالم السُّوء ، هذا الَّذي لو نطقتْ أفعاله ؛ لقالت لله بلسانه : وهم يعطونني الدَّراهم والدَّنانير ، فأين دراهمُك أنت ، ودنانيرك ؟

إنَّ الدِّينار يا ولدي إذا كان صحيحاً في أحد وجهيه دون الآخر ، أو في بعضه دون بعضه ، فهو زائفٌ كلُّه ، وأهل الحكم والجاه حين يتعاملون مع هؤلاء يتعاملون مع قوَّة الهضم فيهم ، فينزلون بذلك منزلة البهائم ، تقدِّم أعمالها ؛ لتأخذ لبطونها ، والبطن الآكل في العالِم السُّوء يأكل دين العالم فيما يأكله .

فإذا رأيتَ لعلماء السُّوء وقاراً فهو البلادة ، أو رقةً ، فسمِّها الضَّعف ، أو

مُحاسنةً ، فقل : إنَّها النِّفاق ، أو سكوتاً عن الظُّلم ، فتلك رشوةٌ يأكلون بها !

* * *

قال الإمام : وما رأيت مثل شيخي سلطان العلماء عز الدِّين بن عبد السَّلام[1] ، فلقد كان الأمر بالمعروف ، والنَّهي عن المنكر شيئاً تصنعه طبيعته ، كما يصنع جسمه الحياة ، فلا يبالي هلك فيه ، أو عاش ؛ إذ هو في الدَّم كالقلب ، لا تناله يد صاحبه ، ولا يد غيره ؛ ولم يتعلَّق بمالٍ ، ولا جاهٍ ، ولا ترفٍ ، ولا نعيمٍ ، فكان تجرُّده من أوهام القوَّة لا تغلب ، وانتزع خوف الدُّنيا من قلبه فعمرته الرُّوح السَّماويَّة الَّتي تخيف كلَّ شيءٍ ، ولا تخافُ ، وكان بهذه الرُّوح كأنَّه تحويلٌ ، وتبديلٌ في طباع النَّاس ، حتَّى قال الملك الظاهر بيبرس وقد رأى كثرة الخلق في جنازته حين مرَّت تحت القلعة : الآن استقرَّ أمري في الملك ، فلو أنَّ هذا الشيخ دعا الناس إلى الخروج عليَّ لانتزع منِّي المملكة !

وكان سلطانُهُ في دمشق الصَّالح إسماعيل ، فاستنجد بالإفرنج على الملك نجم الدِّين أيُّوب سلطان مصر ، فغضب الشَّيخ ، وأسقط اسم الصَّالح من الخطبة ، وخرج مهاجراً ، فأتبعه الصَّالحُ بعضَ خواصِّه يتلطَّفُ به ، ويقول له : ما بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه وأكثرَ ممَّا كنت عليه إلا أن تتخشع للسُّلطان ، وتُقَبِّل يده . فقال له الشَّيخ : يا مسكين ! أنا لا أرضى أن يُقَبِّل السُّلطان يدي ! أنتم في وادٍ وأنا في وادٍ .

ثمَّ قدم إلى مصر سنة ٦٣٩هـ ، فأقبل عليه السُّلطان نجم الدِّين أيُّوب وتحفَّى به[2] ، وولاه خطابة مصر ، وقضاءها . وكان أيوب ملكاً شديد البأس ، لا يجسر أحدٌ أن يخاطبه إلا مجيباً . ولا يتكلَّم أحدٌ بحضرته ابتداءً ؛ وقد جمع من المماليك التُّرك ما لم يجتمع مثله لغيره من أهل بيته ، حتَّى كان أكثر أمراء عسكره منهم ، وهم معروفون بالخشونة ، والبأس ، والفظاظة ، والاستهانة بكلِّ أمرٍ ؛ فلمَّا كان يوم العيد ؛ صعد إليه الشَّيخ ، وهو يعرض الجند ، ويظهر ملكه ، وسَطوته ، والأمراء يقبِّلون الأرض بين يديه : فناداه الشَّيخ بأعلى صوته ليسمع هذا الملأ

---

(١) هو الإمام العظيم شيخ الإسلام عبد العزيز بن عبد السلام ، بركة الدُّنيا في عصره ، توفي سنة (٦٦٠ هـ) . (ع) .

(٢) « تحفَّى به » : احتفل به ، وأكرمه .

العظيم : يا أيُّوب ! ثمَّ أمره بإبطالِ منكرٍ انتهى إلى علمه في حانةٍ تباع فيها الخمر ؛ فرسم السُّلطان لوقته بإبطال الحانة ، واعتذر إليه .

فحدَّثني الباجيُّ قال : سألت الشَّيخ بعد رجوعه من القلعة ، وقد شاع الخبر ، فقلت : يا سيدي ! كيف كانت الحال ؟

قال : يا بنيَّ ! رأيته في تلك العظمة ، فخشيت على نفسه أن يدخلها الغرور ، فتبطره[1] ، فكان ما باديته به .

قلت : أما خِفته ؟

قال : يا بنيَّ ! استحضرتُ هيبة الله تعالى ، فكان السُّلطان أمامي كالقطِّ[2] ولو أنَّ حاجةً من الدُّنيا في نفسي ؛ لرأيته الدُّنيا كلَّها : بيد أنِّي نظرت بالآخرة ، فامتدَّت عيني فيه إلى غير المنظور للنَّاس ، فلا عظمة ، ولا سلطان ، ولا بقاء ، ولا دنيا ، بل هو لا شيء في صورة شيءٍ .

نحن يا ولدي مع هؤلاء كالمعنى الذي يصحِّح معنى آخر ، فإذا أمرناهم ؛ فالذي يأمرهم فينا هو الشَّرع ، لا الإنسان ؛ وهم قومٌ يرون لأنفسهم الحقَّ في إسكات الكلمة الصَّحيحة ، أو طمسها ، أو تحريفها ؛ فما بدَّ أن يقابَلوا من العلماء ، والصَّالحين بمن يرون لأنفسهم الحقَّ في إنطاق هذه الكلمة ، وبيانها ، وتوضيحها ، فإذا كان ذلك فها هنا المعنى بإزاء المعنى ؛ فلا خوف ، ولا مبالاة ، ولا شأن للحياة والموت .

وإنَّما الشَّرُّ كلُّ الشَّرِّ أن يتقدَّم إليهم العالم لحظوظ نفسه ، ومنافعها ، فيكون باطلاً مزوَّراً في صورة الحقِّ ، وها هُنا تكون الذَّات مع الذَّات ، فيخشع الضَّعف أمام القوَّة ، ويذلُّ الفقر بين يدي الغنى ، وترجو الحياة لنفسها ، وتخشى على نفسها ، فإذا العالم من السُّلطان كالخشبة البالية النَّخرة حاولتْ أن تقارع السَّيف !

كلا يا ولدي ! إنَّ السُّلطان ، والحكَّام أدواتٌ يجبُ تعيين عملها قبل إقامتها ، فإذا تفكَّكت ، واحتاجت إلى مسامير ؛ دُقَّت فيها المسامير ، وإذا انفتق الثَّوب فمن أين للإبرة أن تسلك بالخيط الذي فيها ؛ إذا هي لم تخزه[3] ؟

---

(١) « تبطره » : البَطَرُ : الطغيان بالنعمة ، وشدَّة الفرح بها .

(٢) هذه كلمات الشيخ بحروفها . (ع) .

(٣) « تخزه » : تغرز في الثوب .

إنَّ العالم الحقَّ كالمسمار ، إذا أوجد المسمار لذاته دون عمله ؛ كفرَتْ به كلُّ خشبةٍ .

* * *

قال الإمام تقيُّ الدِّين : وطغى الأمراء من المماليك ، وثقلت وطأتهم على النَّاس ، وحيثما وُجدت القوَّة المسلَّطة المستبدَّة ؛ جعلت طغيانها ، واستبدادها أدباً ، وشريعةً ، إلا أنْ تقوم بإزائها قوَّةٌ معنويَّةٌ أقوى منها ، ففكَّر شيخنا في هؤلاء الأمراء ، وقال : إنَّ خداع القوَّة الكاذبة لشعور النَّاس بابٌ من الفساد ؛ إذ يحسبون كلَّ حسنٍ منها هو الحسَن ، وإن كان قبيحاً في ذاته ، ولا أقبح منه . ويرون كلَّ قبيحٍ عندها هو القبيح . وإن كان حَسناً ، ولا أحسن منه .

وقال : ما معنى الإمارة ، والأمراء ؟ وإنَّما قوَّة الكلِّ الكبير هي عماد الفرد الكبير ، فلكلِّ جزءٍ من هذا الكلِّ حقُّه ، وعمله ، وكان ينبغي أن تكون هذه الإمارة أعمالاً نابغةً قد كبُرت ؛ وعظُمت ، فاستحقَّت هذا اللَّقب بطبيعةٍ فيها كطبيعة : أنَّ العشرة أكثر من الواحد ، لا أهواءُ ، وشهواتٌ ، ورذائلُ ، ومفاسدُ تتَّخذ لقبها في الضُّعفاء بطبيعةٍ كطبيعة أنَّ الوحش مفترسٌ .

وفكَّر الشَّيخ ، فهداه تفكيره إلىٰ أنَّ هؤلاء الأمراء مماليك ، فحكم الرِّقِّ مُسْتَصْعبٌ عليهم لبيت مال المسلمين ، ويجب شرعاً بيعهم كما يباع الرَّقيق !

بلَّغهم ذلك ، فجزعوا له ، وعظم فيه الخطب عليهم ، ثمَّ احتدم الأمر ، وأيقنوا أنَّهم بإزاء الشَّرع لا بإزاء القاضي ابن عبد السَّلام .

وأفتى الشَّيخُ : أنَّه لا يصحُّ لهم بيعٌ ، ولا شراءٌ ، ولا زواجٌ ، ولا طلاقٌ ، ولا معاملةٌ ، وأنَّه لا يُصحِّح لهم شيئاً من هذا حتَّى يباعوا ، ويحصل عتقهم بطريقٍ شرعيٍّ .

ثمَّ جعلوا يتسبَّبون إلى رضاه ، ويتحمَّلون عليه بالشَّفاعات ، وهو مصرٌّ لا يعبأ بجلالة أخطارهم ، ولا يخشى اتِّسامه بعداوتهم ، فرفعوا الأمر إلى السُّلطان ، فأرسل إليه ، فلم يتحوَّل عن رأيه ، وحكمه .

واستشنع السُّلطان فعله ، وحنق عليه[١] ، وأنكر منه دخوله فيما لا يعنيه ، وقبَّح عمله ، وسياسته ، وما تطاول إليه ، وهو رجلٌ ليس له إلا نفسه ، وما تكاد

---

(١) « حنق عليه » : اشتدَّ غيظه .

تصل يده إلى ما يقيمه ، وهم وافرون ، وفي أيديهم القوّة ، ولهم الأمر ، والنَّهي .

وانتهى ذلك إلى الشَّيخ الإمام فغضب ، ولم يبالِ بالسُّلطان ، ولا كبر عليه إعراضه ، وأزمع الهجرة من مصر ، فاكترى حميراً أركب أهله ، وولده عليها ، ومشى هو خلفهم يريد الخروج إلى الشَّام ، فلم يبعد إلا قليلاً نحو نصف بريد حتَّى طار الخبرُ في القاهرة ففزع الناس ، وتبعوه لا يتخلَّف منهم رجلٌ ، ولا امرأةٌ ، ولا صبيٌّ ، وصار فيهم العلماء ، والصُّلحاء ، والتُّجَّار ، والمحترفون ، كأنَّ خروجه خروج نبيٍّ من المؤمنين به ، واستعلنت قوَّة الشَّرع في مظهرها الحاكم الآمر من هذه الجماهير ، فقيل للسُّلطان : إن ذهب هذا الرَّجل ؛ ذهب ملكُك !

فارتاع السُّلطان ، فركب بنفسه ، ولحق بالشَّيخ يترضَّاه ، ويستدفع به غضب الأمَّة ، وأطلق له يأمر بما شاء ، وقد أيقن : أنَّه ليس رجل الدِّينار ، والدِّرهم ، والعيش ، والجاه ، ولُبْسِ طيلسان العلماء ، كما يلصق الرِّيش على حجر في صورة الطائرة .

ورجع الشَّيخ ، وأمر أن يعقد المجلس ، ويجمع الأمراء ، وينادى عليهم للمساومة في بيعهم ، وضرب لذلك أجلاً بعد أن يكون الأمر قد تَعالمه كلُّ القاهرة ليتهيَّأ من يتهيَّأ للشراء ، والسَّوم في هذا الرَّقيق الغالي ! .

* * *

وكان من الأمراء المماليك نائب السَّلطنة ، فبعث إلى الشَّيخ يلاطفه ، ويسترضيه ، فلم يعبأ الشَّيخ به ، فهاج هائجه ، وقال : كيف يبيعنا هذا الشَّيخ ، وينادي علينا ، وينزلنا منزلة العبيد ، ويفسد محلَّنا من النَّاس ، ويبتذل أقدارنا ؛ ونحن ملوك الأرض ؟ وما الذي يفقد هذا الشَّيخ من الدُّنيا ، فيدرك ما نحن فيه ؟ إنَّه يفقد ما لا يملك ، ويفقد غير الموجود ، فلا جرمَ لا يبالي ، ولا يرجع عن رأيه ما دام هذا الرأيُ لا يمرُّ في منافعه ، ولا شهواته ، ولا في أطماعه ، كالَّذين نراهم من علماء الدُّنيا ، أما والله لأضربنَّه بسيفي هذا ، فما يموت رأيه وهو حيٌّ .

ثمَّ ركب النَّائب في عسكره ، وجاء إلى دار الشَّيخ ، واستلَّ سيفه ، وطرق الباب ، فخرج ابنه عبد اللطيف ، ورأى ما رأى ، فانقلب إلى أبيه ، وقال له : انجُ بنفسك : إنَّه الموت ، وإنَّه السَّيف ، وإنَّه . . . وإنَّه . . .

فما اكترث الشَّيخ لذلك ، ولا جزع ، ولا تغيَّر ، بل قال له : يا ولدي ! أبوك أقلُّ من أن يقتل في سبيل الله !

وخرج لا يعرف الحياة ، ولا الموت ، فليس فيه الإنسانيُّ ، بل الإلهيُّ ، ونظر إلى نائب السَّلطنة وفي يده السَّيف ، فانطلقت أشعة عينيه في أعصاب هذه اليد ، فيبست ، ووقع السَّيف منها .

وتناوله بروحه القويَّة ، فاضطرب الرَّجل ، وتزلزل ، وكأنَّما تكسَّر من أعصابه ، فهو يرعُد ، ولا يستقرُّ ، ولا يهدأ .

وأخذ النَّائب يبكي ، ويسأل الشَّيخ أن يدعو له ؛ ثمَّ قال : يا سيدي ! ما تصنع بنا ؟

قال الشَّيخ : أنادي عليكم وأبيعكم !

ـ وفيما تصرف ثمننا ؟

ـ في مصالح المسلمين .

ـ ومن يقبضه ؟

ـ أنا .

وكان الشَّرع هو الذي يقول (أنا) فتمَّ للشَّيخ ما أراد ، ونادى على الأمراء واحداً واحداً ، واشتطَّ في ثمنهم ، ولا يبيع الواحد منهم حتَّى يبلغ الثَّمن آخر ما يبلغ ، وكان كلُّ أمير قد أعدَّ من شيعته جماعةً يستامونه ؛ ليشتروه .

ودُمغ الظُّلم ، والنِّفاق ، والطُّغيان ، والتكبُّر ، والاستطالة على النَّاس بهذه الكلمة الَّتي أعلنها الشَّرع :

أمراء للبيع . . . ! أمراء للبيع . . . .

* * *